

مجزوءة المماليك والعثمانيين

المحاضرتان الثالثة والرابعة:
(المماليك من التأسيس إلى الانهيار)

السنة الجامعية: 2020-2021

المحور الثالث: المماليك بدايات التأسيس وعوامل الانهيار

لقد أشرت في المقدمة إلى أن بعض العناصر المدرجة في هذا المحور ستكون مقتبسة من محاضرات زميلنا الدكتور أحمد البوزيدي والتي وضعها رهن إشارة الطلبة في السنة الماضية، وهذا إجراء اعتدت على نهجه في كل مرة أدرس فيها مجزوءة جديدة فأحتفظ ببعض العناصر والمحاور التي قررها الزملاء من قبل بغية إعطاء فرصة أكبر للطلبة الذين لم يتمكنوا من استقاء المجزوءة سابقا، ولذلك فمعظم حديثنا في العنصر الأول عن المماليك البحرية والبرجية ستكون عناصره متقتسبة من المحاضرات السالفة، مع الإشارة إلى أننا نتوقف فقط عند بعض السلاطين والأمراء دون آخرين، أما العنصر الثاني فسيكون حول بعض عوامل وأسباب انهيار الدولة المملوكية.

أولا: المماليك البحرية والبرجية

لا شك أن معظم الدارسين يشيرون إلى أن حجر الزاوية في دراسة دولة المماليك ينطلق أساسا من الإحاطة بالدولة الأيوبية باعتبارها أولا من الدول العظيمة التي حكمت جزءا من العالم الإسلامي وقهرت الصليبيين، وثانيا لما تشكله من ارهاصات أولى لتأسيس دولة المماليك وإن كان في الحقيقة وجود المماليك ممتد من الناحية الزمنية باعتبارهم عنصرا من عناصر الجيش الإسلامي حتى قبل الدولة الأيوبية بزمان، ومما لا شك فيه أن أزهى فترات الدولة الأيوبية هي فترة صلاح الدين 569-589هـ إذ توسعت الدولة في زمانه وشملت مصر والشام والحجاز واليمن، لكن سرعان ما ستفكك الدولة بعد وفاته إلى ممالك متناحرة بين أولاده وعموم البيت الأيوبي وسيستمر الحال زهاء 60 سنة، إلى أن ظهر الملك الصالح نجم الدين أيوب 637-648هـ، وبه ارتبط المماليك أكثر من غيره فتذكر المصادر التاريخية استكثاره منهم، واعتماده الكبير عليهم لما لامسه من بأسهم وإخلاصهم خصوصا بعد مواجهته لأخيه اسماعيل الذي استعان بالصليبيين ووصلت به الخسة أن تنازل سنة 626هـ للصليبيين عن بيت المقدس مقابل أن يكونوا له سندا

وعونا على غزو مصر والشام، ولم يكتف بهذا؛ إذ سلّم إسماعيل عدة مناطق جديدة للصليبيين

منها بيت المقدس وطبريا وعسقلان، ويروي المؤرخ ابن واصل الحموي أثناء مروره بمدينة القدس سنة 641هـ فيقول: "فرايتُ الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلتُ الجامع الأقصى وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة، وأعلن فيه بالكفر" ¹ ولم يكتف الصالح إسماعيل بذلك بل وعدهم بأنهم إذا استولوا على البلاد المصرية فسوف يُعطيهم كافة المناطق الساحلية. الشيء الذي دفع الملك الصالح أيوب لحره مستعينا بالمماليك ويجند



الخوارزمية،² فكانت موقعة "الحرية" شمال غزة سنة 642هـ، ويُطلق عليها الصليبيون موقعة "لافوربيه" أو "حطين الثانية"؛ وكانت هذه المعركة من أهم وأخطر معارك تاريخ الإسلام، حتى شبهها المؤرخ الانجليزي رانسيما ب معركة بحطين لأنها لأول مرة أحرّت مجيء الحملات الصليبية على القدس لمدة سبعة قرون تالية، وقد كانت الحملة الصليبية السابعة على دمياط والمنصورة في مصر بزعامة الملك الفرنسي لويس التاسع سنة 647هـ، نتيجة مباشرة لهزيمة الصليبيين في معركة لافوربيه في شمال غزة؛ فقد أراد لويس أن يثأر لشرف الصليبيين، لكن الهزيمة كانت من

¹ - ابن واصل: مفرج الكرب 333/5.

² - الموطن الأصلي للخوارزميين هو إقليم خوارزم الذي في شرق الدولة الإسلامية، وحدوده من الغرب والشمال بلاد الترك، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الجنوب خراسان، وكان هذا الإقليم من ولايات الاتحاد السوفيتي وهو الآن موزع بين الجمهوريتين الإسلاميتين أوزبكستان وتركستان. وتذكر المصادر التاريخية بأنهم سلالة تركية مسلمة سنية حكمت أجزاء كبيرة من آسيا الوسطى وغرب إيران بين سنوات (1077-1220). كانوا اتباع إقطاعيين للسلاجقة ثم استقلوا وأصبحوا حكام مستقلين في القرن 11. كان مؤسس السلالة أنوشطيفين (1077-1097) من مماليك السلاطين الغزنويين.

نصيبه أيضاً. كما "سلبت (معركة الحربية) الفرنج كل ما أحرزته لهم الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين الأخيرة؛ إذ ليس من الراجح أن تصمد بيت المقدس والجليل لهجوم إسلامي خطير، غير أن الخسارة في القوة البشرية جعلت الشرق الفرنسي من العجز ما لم يجعله يدافع إلا عن المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية المنيعة، ولم يُفَق معركة غزّة في كثرة الخسائر سوى معركة حطين.³ ولذلك استغل الصالح أيوب هذا النصر سياسياً وإستراتيجياً ليعيد معظم فلسطين وبيت المقدس، وأرسل وزيره معين الدين بن شيخ الشيوخ⁴ لمحاصرة دمشق وتمكن من افتكاكها من عمه الصالح إسماعيل، لكن ما لبثت قوات المرتزقة الخوارزمية بعد هذه الانتصارات أن طالبوا الصالح أيوب باقتسام البلاد بينهم، لكنه رفض، الأمر الذي جعلهم ينقلبون عليه ويتحالفون مع الناصر داود⁵ في الكرك والصالح إسماعيل في بعلبك.

ولعل الدرس الأكبر الذي تعلمه الملك الصالح نجم الدين أيوب من حروبه مع أخيه اسماعيل هو أن لا يأمن ذمة جند الخوارزمية وخصوصاً أولئك المستأجرون للحرب لأنه لم يستطع ضمان ولائهم إذ سرعان ما انقلبوا ضده وانضموا إلى خصمه الذي دفع لهم أكثر، ولم يثبت معه سوى جيش المماليك وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس، واستطاع بهم التغلب على منائيه، ولذلك فإن ثبات المماليك وإخلاصهم دفعه لاستقدام عدد أكبر بل والتركيز على الأطفال منهم لتربيتهم وإعدادهم من الصغر، لذا لم تتوان المصادر التاريخية على تسمية هؤلاء المماليك بالمماليك الصالحية أو البحرية، فمن هم؟ وما أبرز قاداتهم

1. المماليك البحرية:

يواجه القارئ لنهايات الدولة الأيوبية منذ وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب مروراً بمقتل السلطان المعظم توران شاه سلسلةً من الأحداث المتداخلة وما تمثله من مصالح متضاربة، جعله يقف عند ما أورده المصادر بهذا الخصوص، وتتفق المصادر على أن المتحكم في

³ - رانسيان: تاريخ الحروب الصليبية 3/397

⁴ - وزير الصالح نجم الدين أيوب، أرسله إلى دمشق فحاصرها مع الخوارزمية أول مرة حتى أخذها من يد الصالح إسماعيل، وأقام بها نائباً من جهة الصالح أيوب، ثم مالا الخوارزمية مع الصالح إسماعيل عليه فحاصروه بدمشق، ثم كانت وفاته في العشر الآخر من رمضان هذه السنة، عن ست وخمسين سنة، فكانت مدة ولايته بدمشق أربعة أشهر ونصف. وصلي عليه بجامع دمشق. البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١٣ - الصفحة ١٩٩، الوافي بالوفيات، الصديقي، ج: 204/4.

⁵ - سير أعلام النبلاء، الطبقة الخامسة والثلاثون.

سير أمور الدولة الأيوبية عندما اشتد المرض في آخر أيام الملك الصالح هم ثلاثة⁶: زوجته أم خليل شجر الدر، ونائب السلطنة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، والطواشي جمال الدين محسن كبير المماليك، وهؤلاء هم الذين قرروا مجتمعين دعوة الناس إلى بيعه الملك المعظم توران شاه ولي عهد لأبيه، للتعمية على وفاته، وتذكر المصادر غضب السلطان الجديد على من ضمنوا له البيعة، فباع ممتلكات فخر الدين بأرخص ثمن نكالا، وأرسل لشجر الدر يطالبها بأموال أبيه ويهددها حتى خافت على نفسها مما دفعها لتقديم شكواها للمالिक البحرية الذين يخلصون لها باعتبارها زوجة السلطان الصالح وحرصتهم على قتله، لكن هناك تساؤلات عدة حول أسباب هذا العداء بين توران شاه وهؤلاء الثلاثة ومن بين ما ذكر وصية الملك الصالح⁷ لابنه توران شاه والتي مال فيها لشجر الدر بقوله: "واجعلها حاكمة على جميع أمورك وأموالك، ولا تجعل على يدها يد"⁸. الشيء الذي جعل توران شاه يعتقد أنها وصية مزورة غرضها خدمة مصالح الثلاثة المتنفذين. لذلك عظم سخطه عليهم، وهو أيضا ما أدى إلى قتله والتخلص منه سريعا⁹.

كما شاع بين الدارسين أن توران شاه لم يكن في المستوى المطلوب حيث عرف بسوء الخلق والتصرف والجهل بشؤون الحكم والسياسة، وأنه تأثر بأراء بعض حشايته فاثاروا ضغينته على المماليك البحرية وعلى شجرة الدر خصوصا، لرغبتهم مشاركته الحكم وإدارة شؤون الدولة. ولذلك استقر رأي المماليك البحرية باستشارة شجرة الدر على قتله قبل أن يبطش بهم. وتزعم تلك المؤمرة مجموعة من أمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقاري وقلاون الصالحي وأبيك التركماني وتم تنفيذ المؤامرة صبيحة يوم الإثنين 28 محرم 648/ 2 أيار 1250م، حيث قتل على يد الظاهر بيبرس، بل هناك من يذكر أن أطماع المماليك تاقَت للسلطة في عهد الملك الصالح أيوب وكان بعضهم عازما على التخلص منه لو لم يمت جراء مرضه. وعلى العموم ستبدأ المرحلة الإنتقالية من دولة المماليك البحرية تحت حكم شجرة الدر سنة 648هـ/1250م.

⁶- محمد بن سالم بن واصل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري صيدا: المكتبة العصرية 1425هـ/2004م، 101؛ يوسف بن قزوغلي سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان تحقيق: إبراهيم الزبيق (دمشق): الرسالة العالمية 1434هـ/2013م.

⁷- نشر كلود كاهن وإبراهيم شيوخ نص هذا الوصية من مخطوط لكتاب النويري مع ترجمته والتعليق عليه، في Bulletin d'études orientales سنة 1977. واعيد نشرها ملحقا في مجلة الدارة، السنة: 42، العدد: 3، ص: 147-160.

⁸- النويري، نهاية الارب، الجزء: 29، ص: 348.

⁹- تركي بن فهد آل سعود، وصية الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى ابنه توران شاه: دراسة نقدية، مجلة الدارة، السنة: 42، العدد: 3، ص: 146.

أ: شجرة الدر (80 يوما 648هـ/1250):

اختلفت الآراء حول نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك البحرية في مصر، بين رأي يقول بان تورن شاه هو اخر الملوك الأيوبيين وأن شجرة الدر هي أولى سلاطين المماليك. وبين من يقول أنها آخر سلاطين الدولة الأيوبية باعتبارها زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب. وقد زالت الدولة بعدما تنازلت للمعز أيبك¹⁰ عن الحكم. وهناك رأي ثالث يرى أن الملك موسى الأشرف الذي نصبه المعز أيبك هو آخر ملوك الأيوبيين وأنه حجبه لصغر سنه. وتولى الحكم بنفسه وبذلك انقرضت الدولة الايوبية.

لكن المهم هو أن مرحلة حكم شجرة الدر هي مرحلة انتقالية مهدت لحكم دولة المماليك البحرية، وقد اختيرت شجر الدر لحل مشكل فراغ العرش بعد مقتل توران شاه ولعل من بين الأسباب وراء هذا الاختيار، تنافس الأمراء المماليك على الزعامة، وتطلع الملوك الأيوبيين في الشام لحكم مصر، لكن أغلبهم لم يكونوا بالمواصفات القيادية الفذة لذلك تشرذمت الدولة الأيوبية إلى مقاطعات وممالك متنافسة، وفي وسط هذا التنافس ابتلي الأيوبيون بزيادة النفوذ الصليبي الذي كانت جيوبه وإماراته تتمتع بقدر من النفوذ والقوة على طول الساحل الشامي، ناهيك عن راجحة عقل شجرة الدر واطلاعها بأمور الدولة والسياسية منذ عهد زوجها، وظهر ذلك جليا في كتمها لخبر وفاة زوجها حتى لا تضعف معنويات الجيش فتمتار الدفاعات والمقاومة التي كانت قد بدأت تؤتي ثمارها بالهجوم المباغت والعمليات الخاصة في النيل واقتحام دفاعات الصليبيين التي كانت قد بدأت في الانهيار، وقد أثبتت هذه المرأة حكمة وتأنيا كبيرا، فبفضل كتمانها لنبا الوفاة حفظت نظام الجبهة العسكرية وتماسكه أمام الصليبيين في المنصورة طوال شهرين، وبفضل هذه السرية استطاع توران شاه أن يتسلم زمام الحكم دون أي عوائق أو موانع.... بعد أن حثته على الإسراع في القدوم لاستلام الحكم، وبالفعل جاء بصحبة جماعة من حاشيته بيد أنه لم يكن جديرا بالحكم، ولا شبيها بأبيه في ذكائه وشجاعته، وبدلا من أن يكافئ توران شاه المماليك الذين ثبتوا في معارك

¹⁰ - الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي النجمي (توفي بالقاهرة عام 1257). أول سلاطين الدولة المملوكية. نُصِبَ سلطاناً على مصر في عام 1250 بعد أن تزوجته وتنازلت له عن العرش شجر الدر سلطانة مصر وأرملة السلطان الأيوبي الصالح أيوب. وبقي سلطاناً على مصر إلى أن أغتيل بقلعة الجبل

دمياط وفارسكور والمنصورة وما تلاها، راح يُعفيهم من مناصبهم، ويقطع عنهم رواتبهم، ويعاملهم بالقسوة والغلظة، ويرفع فوقهم حاشيته، عند هذا الحد قرّر المماليك التخلّص منه، وتزعّم كلُّ من ركن الدين بيبرس وفارس الدين أقطاي وعز الدين أيبك التركماني عملية الاغتيال التي يرونها المؤرخ أبو شامة المقدسي (ت665هـ) بقوله عن شاهد عيان: "في صفر سنة ثمان وأربعين وستمئة وصل الخبر بقتل المعظّم توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل في دهليز الخيمة بعد مدّه السّماط (المائدة) ضُرب بسيف فانهزم ودخل برج الخشب فأحرق، فرمى نفسه إلى ناحية النيل، فأدرك وقُطع بقرية فارسكور، وكان ذلك من غلمان أبيه البحرية".¹¹

وخلال مرحلة شجر الدر قادت المفاوضات مع الصليبيين وتمكنت من استرجاع مدينة دمياط، وأطلق سراح أسرى المسلمين، مع ضمان عدم مهاجمة السواحل الإسلامية من طرف الصليبيين. ودفع فدية للمسلمين مقابل إطلاق سراح الملك الفرنسي لويس التاسع. غير أن هذه المفاوضات لقيت معارضة وكان في مقدمتها معارضة الأيوبيين في الشام، كما لقي حكم شجرة الدر معارضة الخليفة العباسي المستعصم لتضطر للتنازل للعرش إلى الأمير عز الدين أيبك الذي تزوجته في الوقت نفسه، وباعتلائه العرش قامت دولة المماليك البحرية.

ب: المعز عز الدين ايبك: 648-655هـ،

بعد مقتل توران شاه، لم تكن لتقبل شجر الدر أن تتنازل عن أحلام الملّك والسلطنة وهي التي تقلّدتها لمدة ثلاثة أشهر كاملة عرفت فيها معنى القوة والهيبة والنفوذ وخضوع رقاب الرجال والأمراء وكبار الضباط لها، وهي التي "نُقش اسمها على الدينار والدرهم. وكان الخُطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة: واحقظ اللهم الجهة الصالحة، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة السُلطان الملك الصالح"، بيد أن المعارضة الشديدة من البيت الأيوبي وكذا الخلافة العباسية التي وصلت حد التعريض والإساءة دفعتها للتنازل عن الحكم للمعز الذي تزوجته، وقد كان ذلك صوريا فقط إذ كان المعز أيبك كالمحجور عليه أمام نفوذها وقوتها، فلا يُبرم أمرا إلا بمشورة شجر الدر، بل إنها كانت تتعامل كأنها السلطان الحقيقي للبلاد،

¹¹ - أبو شامة: النيل على الروضتين ص185.

يقول المقرزي: "كانت شجر الدرّ قد استبدّت بأمر المملكة، ولا تُطلعه عليها، وتمنعه من الاجتماع بأب ابنه، وألزمته بطلاقها، ولم تُطلعه على ذخائر الملك الصّالح. فأقام الملك المعزّ بمنظر اللوق (بعيدا عن القلعة) أياما حتى بعثت شجر الدرّ من حلف عليه. فطلع القلعة وقد أعدت له شجر الدرّ خمسة ليقتلوه". وينضاف إلى ذلك أنه بعد اعتلاءه العرش واجه عدة أخطار داخلية وخارجية، كان أهمها: ثورة العرب ضد المماليك¹² وخصوصا ثورة الشريف حصن الدين ثعلب الجعدي 1253/651 م، وهو الذي كان يقول "نحن أصحاب البلاد"¹³ ضد حكم المماليك بسبب الفساد والإجحاف الضريبي، مما دفعهم للهجرة إلى المدن والإشترك في الثورات. وقد اجتمع للرجل حسب ما ذكره المقرزي¹⁴ حوالي 12 ألف رجل وقد نجح المعز في التغلب على الثورات¹⁵. وأيضا مؤامرة زعماء المماليك البحرية ضد المعز ومنهم فارس الدين أقطاي، وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس. وقد شكل مقتل أقطاي نهاية لعهد المماليك البحرية وتشتتهم، لذا قرر زعماءهم الخروج من القاهرة، لأنهم كانوا في دائرة الاستهداف، بعد أن تخلص من زعيمهم أقطاي، ولو أعلن أنصاره عداوتهم لأبيك وبقوا في مصر لقتلهم جميعا، وتجدد الإشارة هنا أن خروج البحرية من مصر بعد مقتل أقطاي يعني انقسام المماليك إلى حزبين متناوئين وهما البحرية والمعزية. ويذكر ابن خلدون أن شجر الدر حاكت هذه المؤامرة مع المعز،¹⁶ إضافة للخطر الخارجي الذي تجلّى في اصرار الأيوبيين للتوجه إلى مصر ورغبتهم في انتزاعها من يد المماليك، خصوصا وأن بعض من البحرية أوهم الأيوبيين، بعد هروبهم من مصر واقتطعت لبعضهم الأراضي.

وقد توفي الملك المعز عز الدين ابيك بفعل مؤامرات حاكتها زوجته مع المماليك ضده سنة 655م، وكانت وفاته سببا لنقمة المماليك المعزية على شجر الدر، وقتلها في النهاية إذ القيت عارية من سور قلعة ولم يجرء أحد على دفنها لأيام.¹⁷

¹² - دور عربان الصعيد السياسي ظل الدولة العثمانية، عبد الرحمن المنشاوي.

¹³ - بردة البوصيري واثرا في الادب العربي القديم، محمد فتح الله مصباح، دار الكتب العلمية، ص: 32.

¹⁴ - المقرزي، الجزء 1، 360.

¹⁵ - ابن خلدون، التاريخ. الجزء الخامس، ص: 433. ثورات الشريف حصن الدين بن ثعلب و العربان على المماليك من عام 651 إلى 660هـ/1253 إلى 1261 م. مجلة

وقائع تاريخية، الصادرة عن مركز البحوث و الدراسات التاريخية - كلية الآداب - جامعة القاهرة، عدد يوليو 2009.

¹⁶ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 23، ص: 298.

¹⁷ - أبو الفداء المختصر، ج 1، ص: 442.

ثم قدم المماليك المغزية بعده نور الدين علي بن عز الدين أيبك الذي لقب بالمنصور وحكم لسنتين فقط 655-657هـ/1257م 1259م نظرا لصغر سنه تميز عهده بالصراع الداخلي حول الحكم بين المماليك الصالحية الذين ساندوا علم الدين سنجر الحلبي،¹⁸ الذين اتهم به الأمر سجيناً في القلعة المملوكية، وفر أتباعه إلى الشام خشية القبض عليهم، وهو ما دفع الأمير سيف الدين قطز الذي كان نائباً عنه لعزله عن العرش وتولى حكم البلاد وهو ما تم بالفعل بين 658-657هـ/1259-1260م.



ج: سيف الدين قطز

ينتسب سيف الدين قطز إلى بيت جلال الدين سلطان خوارزم¹⁹، وتذكر المصادر التاريخية أن اسمه كان هو محمود بن مودود، وهو ابن اخت سلطان خوارزم، حمله التتار بعد قضائهم على مملكة خوارزم إلى دمشق وباعوه في الاسواق إلى تجار الرقيق، ثم اشتراه السلطان عز الدين أيبك. وقد كان سياسياً محنكاً

وقائد عسكرياً بارعاً، ووصفه المقرزي بأنه: "بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً، حسن التدبير والسلوك، له اليد البيضاء في جهاد التتار".. وقد تولى الحكم في فترة حرجة حيث تمكن من فرض نفوذه على نور الدين علي معتمداً على المماليك المغزية من أجل توحيد الصف الداخلي، استعداداً لمواجهة

18 - كان نائب قطز على دمشق، فلما جاءت بيعة الظاهر دعا لنفسه قبويع، وتسمى بالملك المجاهد، ثم حوضر وهرب إلى بعليك فحوضر فأجاب إلى خدمة الظاهر فسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور مدة وأطلقه الأشرف، واحترمه وأكرمه، بلغ الثمانين سنة وتوفي في هذه السنة.

19 - آخر سلطان خوارزمي تولى الحكم بعد أبيه السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي بعد خسارته ملكه على يد المغول بقيادة جنكيز خان.

الخطر المغولي، في فترة كانت فيه مصر هي الهدف التالي للمغول بعد تخريبهم لبغداد ودمشق وحلب، وقد استطاع على قصر مدته حكمه بذل جهود مضيئة كان من نتائجها وقف المد المغولي واسقاط هيئته.

* جهود قطز في محاربة التتر "معركة عين جالوت":

وصل سفراء هولاءكو لمصر يحملون رسالة كلها تهديد ووعيد لقطز بتخريب مصر ان لم يستسلم، وقد واجه سيف الدين تهديدات هولاءكو بقوة وشجاعة حيث قرر الإستعداد لقتال التتر. وفي الوقت نفسه استقبل معارضيه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا من القاهرة بعد مقتل قائدهم فارس الدين أقطاي على يد عز الدين ايبك. وكان من أبرزهم ركن الدين ببرز البندقاري، ورحب بهم ومنحهم اقطاعات كبيرة من أجل توحيد صفوف المماليك مرة أخرى.

ومن جهة أخرى أقام استعدادات عسكرية مهمة أبرزها تقوية صفوف الجيش الذي تطلب نفقات لجأ إلى تغطيتها عن طريق فرض ضرائب بعدما استرضى الفقهاء وأبرزهم العز بن عبد السلام سلطان العلماء حيث سلم جميع املاكه وأملاك حريمه لبيت المال استعدادا للجهاد وتمويل الجيش، وقد كان للعز ابن عبد السلام دور كبير في تحريض العامة على الجهاد ضد المغول²⁰، فكيف حارب السلطان قطز المغول؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بأس من التأكيد على بعض جوانب قصة المغول وسيطرتهم على العالم الإسلامي، لقد استطاع الحاكم المغولي جنكيزخان أن يؤسس امبراطورية مترامية الأطراف تمتد من بحر قزوين إلى شواطئ الصين، وعند بداية القرن الثالث عشر بدأ أول صدام بين المغول والعالم الإسلامي 1219م، بهجومهم على السلطان علاء الدين بن محمد خوارزم شاه ليتوجهوا بعد ذلك إلى مركز الخلافة العباسية بزعامة هولاءكو من أجل القضاء على الطائفة الإسماعيلية وتدمير مركز الخلافة العباسية في بغداد، وقد وصل إلى بلاد فارس سنة 1254م، وأخذ يمهد للدخول إلى بغداد حيث ارسل عدد من

20 - كان للفقهاء دور كبير في التصدي للمغول ولمن اراد الوقوف على هذا ما عليه سوى العودة لكتاب . دور العلماء والمفكرين في مواجهة الغزو المغولي، محمّد بن صامل السليبي، وناصر بن سليمان العمر، الناشر: دار الفضيلة - الرياض، الطبعة الاولى، 1434.

الجواسيس الذين عقدوا اتفاقا مع الوزير ابن العلقمي (الشيوعي) والخليفة في لهو غير مدركا لذلك.

وفي سنة 656هـ/1258م، دخل التتار العاصمة بغداد، بعدما سلّم الخليفة العباسي المستعصم بالله نفسه وعاصمته دون شروط، وارتكب المغول جرائم يندى لها الجبين حيث أعملو سيوفهم في المسلمين ويذكر المقرئزي "أن دماء الضحايا كانت تجري في طرقات المدينة، وهي المدينة التي كانت معروفة بالعلم والمعرفة والحضارة، حيث أصبحت بغداد الجريحة بعد أربعين يوما من التدمير والقتل والحرق أطلالا، حيث خرب التتار الجوامع واحرقوا المباني الجميلة ودمروا المكتبات الثرية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها بغداد أسيرة لغير المسلمين"، لقد أصيب المسلمون بالصدمة، جراء فقدانهم لدار الخلافة حيث أصبحوا لأول مرة في تاريخهم بدون خليفة، حيث صور لهم من هول الصدمة أن الساعة آتية لا ريب فيها. وقد واصل التتار زحفهم إلى بلاد الشام التي كانت تحكم الأمراء الأيوبيين الذين عانوا من الضعف، وهو ما دفع الناصر يوسف الأيوبي حاكم دمشق وحلب إلى ارسال سفارة ودية إلى هولاءكو محملة بالهدايا والتحف الثمينة يعلن من خلالها الخضوع ويطلب مساعدته للقضاء على المماليك في مصر وهو ما رفضه هولاءكو وطالبه بالخضوع والإستسلام.

ولذلك غير الناصر وجهته للممالك واستنجد بهم وقد وعده السلطان قطز الذي كان قد تولى العرش بتقديم المساعدة، وبعد دخول التتار حلب وتدميرها خضع بعض الأمراء الأيوبيين من هول سفك الدماء والتخريب، في حين توجه الناصر يوسف وعدد من المماليك البحرية (الذين كانوا قد هربوا من مصر بعد مقتل فارس الدين اقطاي) ومنهم الأمير بيبرس البندقداري، الذي سيصبح فيما بعد اميرا. إلى مصر عبر غزة بعدما وعده قطز بالتنازل عن مصر باعتباره سليل الناصر صلاح الدين الأيوبي.

بعد اتمام الإستعدادات العسكرية ووضع الخطط الإستراتيجية الدقيقة لغرض المعركة ضد المغول توجه قطز على رأس قواته لمواجهة التتار وانضم اليه عدد من المتطوعين المصريين، لكن بعض أمراء المماليك أرادوا التخلف عن المشاركة في المعركة فخاطبهم قطز قائلا: "يا معشر

المسلمين لكم زمان تاكلون من بيت المسلمين وانتم للغزاة كارهون أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبي ومن لم يرغب فل يعد إلى بيته فان الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين". وبعد توحيدده للجمية الداخلية وضع قطز خطة عسكرية محكمة تقضي بتوجه القائد بيبرس البندقداري على رأس قوة استطلاعية في اتجاه غزة لمعرفة الأوضاع الميدانية، وقد تحرك في شهر شعبان 856هـ/تموز 1260 حيث واجهه قوة صغيرة من التتار استطاع ان يدمرها، وهو ما جعل السلطان قطز يتحرك من مصر في رمضان 658 آب 1260 باتجاه فلسطين مارا من الطريق الساحلي لمدينة عكا بعدما حصل على أمر من الصليبيين للمرور منها، لقطع الطريق على قائد التتار وفي صبيحة يوم الجمعة سادس وعشرين من رمضان 658هـ الموافق ل 3 شتنبر 1260م، انطلقت المعركة في عين جالوت بفلسطين. وقد انتصر فيها المسلمون بعدم ما ابلى فيها قطز البلاد الحسن وتمكن من أسر قائد التتار. تابع قطز زحفه إلى دمشق محققا الإنتصارات واستقبل استقبال الأبطال وأعاد الأمن، وكافئ الأمراء الأيوبيين والمماليك الذين ساندوه ضد التتار وقام بتطبيق الحد فيمن تعاون معهم. ومن الأسباب التي مكنت المسلمين من النصر إلى جانب وحدة الكلمة والقيادة الحكيمة، الظروف الداخلية التي كانت تعرفها امبراطورية المغول حيث شهدت وفاة الخان المغولي الأعظم "منكو خان" وهو ما دفع هولاءكو للتوجه إلى العاصمة "قراقورم"²¹ لحضور انتخاب خان جديد، "قوبلاي" وهو ما جعله يتخلف عن قيادة الجيش المغولي في عين جالوت وفي الشام.

وقد اسهم انتصار المسلمين في عين جالوت في توطيد أركان الدولة المملوكية، حيث تأكد أنها القوة الوحيدة التي بإمكانها حماية دار الإسلام، وهو ما جعل سلاطين المسلمين يعترفون بقوتها. كما اسهمت في اسلام بعض التتار وذوبانهم في الحضارة الإسلامية، وقطع ذلك الإنتصار الباب أمام الصليبيين للقيام بأي تحالف مع التتار ضد المسلمين وبالتالي جلائهم عن الشام.

²¹ - مدينة قراقورم تقع في منغوليا الحالية وكانت سابقا تشكل عاصمة إمبراطورية المغول التي تمتد من شرق شبه جزيرة كوريا إلى حدود أوروبا الغربية وشرق المنطقة العربية. بناها جنكيز خان وزينها بتحف وتمثيل التي اخذها من البلدان التي غزاها واشهرها لوحات الفارسية وفي عهد قوبلاي خان نقلت العاصمة إلى الصين.

بعدهما كان قطز يستعد للعود إلى مصر الذي استقبل فيها بما يليق نظرا لما حققته جيوشه من انتصارات فضلا عن ضمه لبلاد الشام إلى مصر، اغتيل قطز ولم يتجاوز حكمه سنة واحدة، وتوجهت أصابع الاتهام لركن الدين بيبرس وفسر ذلك بالانتقام من قطز لمقتل أقطاي، ولتراجع قطز عن وعده لبيبرس بمنحه ولاية حلب اذا ما انتصر على المغول .

د: عهد الظاهر بيبرس 658-678م/1260-1279:

يعتبر بعض الدارسين أن الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، حيث بدأ عمله السياسي بتوحيد الجبهة الداخلية مما جعل دولته تحضى باحترام القوى الدولية آن ذاك. فما هي السياسة الداخلية للظاهر بيبرس؟ تميز السلطان بيبرس بالحزم وعلو الهمة والبأس الشديد وبعد النظر وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفة العدل والفروسية، وقد اتخذ عدة اجراءات من أجل تحصين دولته الناشئة، ومنها: -التقرب من الفئات الإجتماعية الخاصة والعامّة، حيث قرب اليه الأمراء من أجل الإستعانة بهم في تسيير شؤون الدولة. - التخفيف من الضرائب الفروضة على الرعية، والإعفاء عن السجناء. - قضاءه على بعض الحركات المناهضة لحكمه وعلى رأسها حركة سنجر الحلبي في دمشق الذي عارض اغتيال السلطان قطز. وكذا انتفاضة الكوراني التي حدثت في القاهرة "1260" حركة شيعية كانت تهدف لإستبدال الحكم لصالح الشيعة.. ثم انتفاضة العرب سنة 1261م بزعامة حصن الدين ابن ثعلب، ومن أجل اضعاف طابع المشروعية على حكمه قام باجراء مهم وهو محاولة إحياء الخلافة العباسية. ليظهر اما العالم أنه الحامي للخلافة، وأن وجود الخليفة العباسي في مصر سيجعل لسلطان المماليك، مكانة عليا مقارنة مع سلاطين وأمراء العالم الإسلامي. حيث استقبل أحد أمراء بني العباس وهو أبو القاسم احمد وبايعه بحضور العلماء والقضاة والوجهاء ومنهم العالم العز بن عبد السلام، وحمل لقب المستنصر بالله، وقد قام بيبرس بتنظيم ولاية العهد في دولة المماليك البحرية، وذلك من أجل تفادي الصراع حول الحكم بين الأمراء عقب وفاة السلطان الحاكم، وليضمن الحكم لأسرته من بعده. حيث قام سنة 1263م بتولية ابنه بركات ليتولى الحكم من بعده، كما قام بتحسين المدن الحدودية والثغور، وتقوية القدرات العسكرية للدولة بتكوين جيش من

المماليك. كما عمل على تنظيم عمل البريد لربط القاهرة بباقي المناطق من أجل تسهيل عملية نقل الأخبار والتواصل وتقديم الاوامر. حيث ربط البلاد بخطوط من شبكة البريد البرية والجوية "الحمام الزاجل". إلى جانب ذلك اهتم بيبرس بالمنشآت المدنية فعمل على تطوير الجهاز الإداري حيث أسس بعض الوظائف الإدارية مستفيدا من التأثير المغولي، فأحدث مناصب لم تكون معرفة بمصر من قبل ومنها: أمير السلاح (الذي يتولى سلاح السلطان)، أمير المجلس (الذي يتولى امر مجلس السلطان)، رأس النوبة (الذي يتحدث على ممالك السلطان وينفذ حكمه فيهم)، أمير آخور (الذي يتحدث عن اصطبالات السلطان)، أمير جاندار: اطلق على الشخص الذي يستأذن على الأمراء وغيرهم.، أمير علم (يتولى امر الأعلام السلطانية)، نقابة الجيوش (يتولى مراقبة الأمراء الذين يود السلطان القبض عليهم).

أما الجانب القضائي فقد قام الظاهر بيبرس سنة 1265 باصدار قرار يقضي بتعيين قضاة يمثلون المذاهب الفقهية الأربع بعدما كان بمصر قاضي واحد على المذهب الشافعي، وسمح لهم باختيار من ينوبون عنهم في الديار المصرية. كما قام باجراءات تهم الأخلاق العامة حيث منع بيع الخمر وأقفل الحانات في مصر وبلاد الشام. أما الجانب العمراني فقد جدد بناء الحرم النبوي، وأعاد بناء قبة الصخرة بالقدس بعدما تداعت اركانها، وأعاد الضياع الخاص بوقف الخليل بفلسطين. كما بنى المدرسة الظاهرية وعين عليها كبار الأساتذة والمعلمين. اسس المسجد المعروف باسمه في القاهرة، بنى القناطر وجدد القلاع التي هدمها المغول في بلاد الشام.

2. - دولة المماليك البرجية (الجراكسة) ²² من 1382م إلى 1517م.

لقد قامت هذه الدولة على أساس مخالف نسبيًا للمماليك البحرية، وان كانت السمات الأساس التي تميز بها المماليك عموما هي صفة "العصبية" أو العصبية بحيث كان لكل سلطان عصبية الخاصة به ولكل أمير عصبية الذين تقربوا منه، وبقدر ازدياد عدد المماليك تتقوى عصبية السلطان ويستطيع أن يصمد في وجه المؤامرات بل يستطيع ان ينتزع السلطة من يد سلاطين آخرين. ونتيجة لهذه الصفة كثرت أسماء طوائف وفئات المماليك من صالحية وظاهرية

22 - المماليك الشراكسة، شفيق توفيق إسماعيل. دار سلان للطباعة، سوريا، الطبعة الأولى 2009.

ومنصورية وأشرفية ومعزية وغيرها، مما رأيناها سلفا وقد حرص السلاطين على شراء المماليك الصغار وتربيتهم ليصبحوا في المستقبل عدتهم وضمنا استمرارتهم.

ويعتبر السلطان قلاون من السلاطين الذين قدروا تلك الظاهرة فأراد أن يكون طائفة من المماليك ترتبط به وتختص بالولاء له وتختلف عن الطوائف المملوكية الأخرى، خصوصا بعد أن كثر بيع المماليك في مصر الشيء الذي دفع السلطان قلاون فرقة جديدة من المماليك الشركس والأرمن وأطلق عليهم اسم المماليك البرجية أو "الشركسية" نسبة إلى أبراج قلعة الجبل التي أقاموا فيها، وقد اختار طائفة جديدة من عنصروجنس القوقاز الذين عرفوا في المصادر العربية بالجركس أو الشركس، وبالرغم من أنهم من الأتراك بشكل عام غير أنهم كانوا على عدااء معهم، ويعود موطنهم الأصلي إلى المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق، وينتشرون في شمال بحر قزوين في القسم الشمالي الغربي من القوقاز أي حوض نهر قوبان وقسم من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود، وسار المماليك البرجية على نفس نمط المماليك البحرية في أنظمتها وسياستها، وأول حاكم منهم كان هو الظاهر سيف الدين برقوق الذي استطاع أن يقضي على قلاوون



وأسرته ويستأثر بالسلطة لنفسه، وقد كان مناقضا لمبدأ الوراثة الذي حاولت دولة المماليك الأولى تطبيقه، وقد تولى الحكم من المماليك البرجية أربعة وعشرون حاكما (ينظر

لائحة السلاطين وفترات حكمهم). إذن بدأت دولة المماليك البرجية بانقلاب عسكري قام به السلطان الشركسي برقوق وفي عهدهم أقصى اتساع لدولة المماليك في القرن التاسع الهجري. وكان من أبرز سلاطينهم برقوق وابنه فرج وإينال والأشرف سيف الدين برسباي فاتح قبرص وقانصوه الغوري وطومان باي.

ولعل أسباب اختيارهم راجعة لشجاعة وقوة تلك القبائل، ثم نظرا لتواجد سوق الرقيق بأثمان بخسة. والتي مكنت السلطان قلاون من شراء عدد كبير منهم وبلغ عددهم في أواخر عهده

ثلاث آلاف وسبعمائة مملوك وأسكنهم في أبراج القلعة أي في مركز إقامة السلطان أي دار الحكومة ليكونوا حراسا له ولأولاده، فاشترى السلطان المنصور قلاوون أعدادًا منهم ليتخلص من صراع المماليك البحرية وليضمن الحفاظ على السلطنة له ولأبنائه من بعده. وقد أطلق على هؤلاء المماليك الجدد المماليك الجراكسة نسبة إلى أصولهم التي ينتمون إليها، كما أطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبة إلى القلعة التي وضعوا فيها، ولم يطلق عليهم اسم الشركس إلا بعد ذلك. وقد سار أبناء السلطان قلاوون على نفس نهج أبيهم في الإعتماد على طائفة المماليك الجركسية، وقد اسهمت مجموعة من العوامل في ازدياد نفوذ المماليك البرجية وأهما: تزايد أعدادهم وترقيتهم في المناصب الإدارية، ناهيك عن الدور الذي قاموا به في السياسة الداخلية (وحماية عرش محمد الناصر). وكذا جهودهم المتميزة في مواجهة الخطر المغولي عن بلاد الشام، وفي سبيل وصولهم للحكم بذل البرجية جهود كبيرة وتحالفات عدة فتعاونوا في البداية مع غيرهم من الطوائف المملوكية من أجل إضعاف أسرة قلاوون، ولما قوي نفوذهم وازداد عددهم، أصبحوا ينافسون تلك الطوائف خاصة التركية منها، وتمكنوا من السيطرة على الجيش وإزالة حكم الأتراك وإقامة حكم البرجية في القاهرة.

ولعل من مميزات دولة المماليك البرجية أن أغلب سلاطينها كانوا من أصل جركسي، باستثناء اثنين من أصل يوناني وهم الظاهر خشقدم²³ وتمريغا²⁴. واتخذت من العصبية سلاحا لمحاربة المماليك البحرية التي اعتمدت العنصر التركي. كما انها لم تلتزم بمبدأ وراثة العرش. مما أدى إلى اشتداد حدة الصراع حول العرش بين الاخلاف.

وقد ساءت أحوال المماليك الشركسية في عهد السلطان كتبغا (1294م/1296)، وسلفه السلطان لاجين (1296/1298م)، اللذين اغتصبا السلطة من السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قبل ان يتمكن الشركاسة من قتل لاجين واستعادة الناصر محمد للمرة الثانية. ولما كان هذا السلطان ضعيفا بدا الجراكسة يفكرون في مصالحهم وعملوا على تنصيب بيبرس الجاشنكير

²³ - سلطان الدولة المملوكية البرجية (الشركسية) السادس عشر، والاول من الاورام بعد أن تسلطن، أستاذه الأول كان الخواجة " ناصر الدين محمد " و لذلك لقب بالناصرى و استاذه الثاني كان السلطان " المؤيد شيخ " و لذلك لقب بالمؤيدي. حكم من عام 1460م حتى وفاته عام 1467م ، ويعتبر من أكبر سلاطين الدولة البرجية. وكان من أصل رومي... ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج: 4/469.

²⁴ -الظاهر تمر بغا الرومي، هو سلطان من المماليك البرجية، تولى عرش مصر لفترة قصيرة لا تتجاوز شهرين في سنة 1468. يذكر ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة أن الظاهر تمر بغا كان رومي الجنس من قبيلة أرنووط، جلبه تاجر في صغره إلى الشام في حدود سنة 824 هـ.

وهو ما دفع الناصر محمد استرجاع عرشه للمرة الثالثة. وتبقى من أهم فترة حكم سلاطين البرجية، فترة حكم السلطان برقوق وخلفاءه بين 1382م/1421م.

وقد شهدت دولة المماليك البرجية عدة تطورات داخلية وخارجية، وأبرزها: ثورة الخليفة المتوكل على السلطان برقوق سنة 1383م، ناهيك عن ثورة العربان وهم الفلاحون والبدو 1393 قام بها الشريف جمال الدين محمود العنابي، انتفاضة علي باي الخزندار 1398م.

ولا شك أن المنصور قلاوون حرص على تربية مماليكه التربية الدينية والعسكرية في وقت واحد، ولم يسمح السلطان لهؤلاء المماليك بمغادرة القلعة مطلقاً، ولما توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة ليلاً، وبعد مدة أصبحت أعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة، وغدوا أصحاب رتب عسكرية ومنهم الأمراء والقادة واستطاعوا أن يتسلموا السلطة ويحكموا البلاد، ولما كان هؤلاء كلهم بمستوى واحد فقد سادهم جو من الحسد كما ساد من سبقهم من المماليك.. فكان القتال بينهم ومحاولة استلام السلطة، فما أن يصل أحدهم إلى السلطنة حتى يحاول أن يؤسس أسرة حاكمة غير أن آخر لا يلبث أن يقبض على سابقه وخاصة الصغار منهم فيخلعه أو يقتله ويقوم مقامه.

حكم المماليك الجراكسة مصر والشام والحجاز مدة تزيد على مائة وإحدى وثلاثين سنة، من العام 792 حتى 923هـ، وقد تعاقب في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً، ويلاحظ أن السلطان كان يسلم الأمر ويحكم مدةً ثم يعهد لابنه من بعده وغالباً ما يكون صغيراً فيكون عليه وصياً أو نائباً عنه أو مُدبِّراً للأمور المملكة -وهو من المماليك أيضاً- ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله، لذلك لم تكن هناك أسرة تولت السلطنة إلا الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج سبع سنوات ثم خُلع، وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبدالعزيز مدة ثلاثة أشهر ثم أُعيد المنصور فرج فحكم سبع سنوات أخرى.. ويلاحظ في آخر خمسة سلاطين ان قتلوا، فقد خُلع الظاهر قانصوه بعد سنة من تسلمه أمر السلطنة، وقتل جامبلاط قبل مرور سنة من تسلمه السلطنة.

المحور الرابع: عوامل انهيار الدولة المملوكية:

لقد تهيأت عوامل كثيرة أسهمت إسهاماً كبيراً في تأسيس دولة المماليك، هذه الدولة التي خرجت من رحم الدولة الأيوبية وقامت على أنقاضها، ومن تلك العوامل ضعف الدولة الأيوبية، حيث هجر صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته دولة واسعة الأتراب، وقد وزع في حياته البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته، فتقاسم هؤلاء هجرته بعد وفاته، وفي ظل ما وقع من الحروب والمؤامرات بينهم استطاع الملك العادل (ت 615هـ) أخو صلاح الدين الأيوبي توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، ولكنه ارتكب خطأ عندما وزع إرثه على أولاده، فأدى هذا التوزيع إلى التنافر والتحاسد بين الإخوة، وبسبب هذه المنافسات والمنازعات أكثر الأيوبيون من شراء المماليك، وكانت جميع مجموعة تنسب إلى صاحبها الذي اشتراها وتولاها بالتدريب، وحدث التحول الهام كان هؤلاء المماليك عبيداً استقدمهم الأيوبيون، زاد نفوذهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على السلطة سنة 1250 م. كان خطة هؤلاء القادة تقوم استقدام المماليك من بلدان غير إسلامية، وكانوا في الأغلب أطفالاً يتم تربيتهم وفق قواعد صارمة في ثكنات عسكرية معزولة عن العالم الخارجي، حتى يتم ضمان ولاؤهم التام للحاكم. بفضل هذا النظام تمتعت دولة الممليك بنوع من الاستقرار كان نادراً آنذاك.

والى جانب العوامل المساعدة فقد تعددت الأسباب التي أدت إلى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم سنحاول عرضها في هذه النقطة لكن مربط الفرس لادراك هذه الأسباب ينطلق أساساً من فهم العلاقات المملوكية العثمانية، وعليه يمكننا ان نختزل هذه الأسباب فيما يلي:

1- لعل المفتاح الأساسي لفهم نهاية الدولة المملوكية ينطلق من علاقتها بالعثمانيين، إذ سقطت على أيديهم نهائياً عام 1517 م، ولكن قبل ذلك تراوحت علاقة الطرفين بين المودة والتقدير تارة، وبين القلق والصراع الدامي تارة أخرى، فقد تجددت علاقات الصداقة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية بعد زوال الخطر التيموري، وتوطدت أواصر الصداقة وتبادل الطرفان السفارات والهدايا خصوصاً في عهد السلاطين: الأشرف برسباي، جقمق، مراد الثاني...ولكن ستتحوّل هذه العلاقة الودية إلى صدام خصوصاً بعد تمكن العثمانيين من فتح

القسطنطينية لتتعمق الجراح باتخاذ البكوات العثمانيين لأنفسهم ألقاب السلاطين ، ويذكر المؤرخ ابن إياس أن محمداً الثاني كان أول زعيم في بني عثمان اتخذ لنفسه لقب سلطان وسأوى نفسه بحكام مصر. والمعروف أن اتخاذ الألقاب السلطانية رمز إلى تحول العثمانيين إلى سياسة الدولة العظمى، وأن المقصود بذلك تأكيد الدور العالمي للسلطنة العثمانية.

2- التفوق العسكري لدى العثمانيين: فسلح المدفعية المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لاتتحرك، في حين كان سلاح المدفعية العثماني يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كل الاتجاهات، ويقابل ذلك عدم تطوير المماليك اسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائداً في العصور الوسطى كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الاسلحة النارية وبخاصة المدفعية. إضافة إلى سلامة الخطط العسكرية العثمانية في المعارك الحاسمة: فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة في سرعة اضبطوا إليها ومحاربتهم في ارض يسيطر عليها عدوهم ومباغتتهم للمماليك كل ذلك كان مما يدخل في عوامل النصر، ومن سلامة التخطيط أيضاً استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة -إذا أريد تحريكها- ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

3- كثرة الفتن والقتال والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم في أخرج الأوقات، لتتوج أحيانا بوقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك الذين فضلوا الإنضمام لجيش السلطان سليم وكانوا مستعدين للتعاون مع الدولة العثمانية وتحمل مسؤولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني ومن أمثال هؤلاء: فاير بك الذي اسند إليه سليم الأول حكم مصر، وجان بردي الغزالي الذي تولى حكم دمشق. لتنضاف لها أيضا سوء الأحوال الاقتصادية، وخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

4- العامل الجامع للأسباب السابقة حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، عكس الدولة المملوكية التي

انحرفت ومارست الظلم على رعاياها فكرهت الرعية للسلطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة استقرائية مترفعة منعزلة عن الشعوب. وقد نقل الدكتور علي حسون عن الجبرتي من كتابة تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار في المجلد الأول وصفاً لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضاً منها: (...وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الاسلام ولما خلص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عن بقي من الجراكسة وأبناءهم ولم يتعرض لأوقاف السلطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغللال الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم المماليك وآنار الحوالك ورفع منار الدين وأحمد نيران الكافرين.. لم تنزل البلاد منتظمة في سلكهم ومنقادة تحت حكمهم .. وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذب عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين فلذلك أتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيادي نوابهم .. هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الاسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين.

وخلاصة القول، لقد كانت الأمور تتجه لا محالة الصدام الصراع بين قوتين في العالم الإسلامي بغية الهيمنة على زعامة العالم الإسلامي، "إذ لم يكن للاصطدام بين الدولتين بدعاً جلاً أم أجلاً"، وازداد حدة وضراوة بعد وفاة السلطان محمد الفاتح سنة 1481 م، ونزاع الأخوين بايزيد الثاني وجم على العرش، هذا النزاع الذي انتهى بإيواء المماليك لجم وأحسنوا استقباله، الأمر الذي أثار غضب السلطان العثماني بايزيد الثاني وجعله يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من المماليك. ومع تنامي هيبة الدولة العثمانية كحامية لجميع المسلمين، وانتصار سليم الأول على الصفويين في معركة جالديران سنة 1514 م،²⁵ زاد قلق السلطان المملوكي قانصوه الغوري ومخاوفه، وأحس بالخطر من تحول موازين القوى إلى جانب العثمانيين، واعتبر السلطان العثماني خروج السلطان المملوكي على رأس جيشه إلى حلب بمثابة إعلان للحرب على الدولة

²⁵ - هذه المعركة بين دولتين مسلمتين قويتين حينها، الأولى مذهبها الديني الرسمي هو الإسلام السني، وتلك هي الدولة العثمانية، والثانية ناشئة حديثاً مذهبها الديني الرسمي هو الشيعي الاثني عشري، في تلك المعركة هزمت الدولة العثمانية الدولة الصفوية ودخلت عاصمتها تبريز في إيران الحالية. تعرّف على المعركة التي رسمت شكل العلاقات بين العثمانيين والدولة الصفوية لمدة قرنين، ولمن اراد المزيد من التفصيل عن هذه المعركة يمكنه العودة لكتاب، كتاب معركة تشالديران تأليف: شوقي أبو خليل - دار الفكر.

العثمانية تأييدا للدولة الصفوية الشيعية، فكان ما يحدث بينهما من شقاق بينهما، كان مبعثه التنافس الذي انتهى بنشوب الحرب بينهما و تجسد ذلك في مواجهتين الأولى كانت في مرج دابق عام 1516 م و الثانية كانت في الريدانية عام 1517 م، وكان النصر حليف العثمانيين، وانتهت المعركة الثانية بشنق السلطان المملوكي طومان باي على باب زويلة، وبذلك أصبحت مصر والشام ضمن أملاك الدولة العثمانية، وهكذا لقد تلقى المماليك الهزيمة وهم في شيخوخة دولتهم لتكون آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة اسلامية كبرى سواء في الشرق الأوسط أو في العالم، فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم ، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التي كانت حكمهم للنفوذ العثماني.

وعليه لقد بقيت الصداقة متبادلة بين المماليك والعثمانيين ما بقيت أطرافهما ومنافعهما متباعدة، وفي مسافات جغرافية تكفل لهما عدم الاصطدام الاقتصادي أو السياسي، ثم أخذت هذه الصداقة تتحول إلى مغايرة وتحاسد خصوصا لعد سنة 1461، ثم إلى مباغضة ومعاداة لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة سنة 1483، والتي ظلت ثمانية أعوام طويلة، ومع ذلك يمكن القول أن قضاء العثمانيين على المماليك لم يكن قضاء مبرما، فقد انتهت دولتهم سياسيا لكن على ارض الواقع ظل النظام المملوكي مستمرا في ميادين السلطة والاقتصاد، وخاصة التجارة الكبرى مع مناطق البلاد المختلفة، لهذا فقد ظلت الدولة العثمانية، بعد فتحها لمصر وقضاءها على النفوذ المملوكي في الشام والحجاز، تحتضن المماليك في مجال نفوذها الجديد. ولم يستطع العثمانيون اجتثاث كل القائمين على البنية الاقتصادية الأساسية في المدن، كما لم تتمكن من تعويض كل العناصر العاملة في الأرياف على جمع الضرائب وأموال الزكوات، وكذا الوظائف الإدارية والسيارية وقطاعات أخرى.